سورة ابراهيم

مكية وهي اثنتان وخمسون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾﴾.

﴿الٓر كِتَٰبٌ﴾ أي السورة المسماة بـ: ﴿الٓر﴾ كتاب عظيم ﴿أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ﴾ وفي إسناد الإنزال إلى ضمير العظمة، ومخاطبته ﷺ مع إسناد الإخراج إليه في قوله: ﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ لا يخفى من التفخيم والتعظيم، والمراد من الناس جميعهم، أي أنزلناه إليك لتخرجهم كافة من عقائد الكفر والضلال، إلى الحق المؤسس على التوحيد، الذي هو نور بحت ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ بتوفيقه وتسهيله، وفيه استعارة تمثيلية، بتصوير الهدى بالنور، والضلال بالظلمة، والمنغمس في ظلمة الكفر والضلال لا يتسهل له الخروج إلى نور الإيمان، إلا بتفضل الله تعالى بإرسال الرسل الكرام ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ تخصيص الوصفين بالذكر، للترغيب في سلوكه، ببيان ما فيه من الأمن، والعاقبة الحميدة، وللتنبيه على أنه لا يذلُّ سالكه، ولا يخيب سائله ﴿الحميد﴾ بحمده لنفسه أولاً، وبحمد عباده له أبداً.

﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾﴾.

﴿ٱللَّهِ﴾ عطف بيان للعزيز لاختصاصه بالمعبود الحق، لأنه أجري مجرى أسماء الأعلام لغلبته، ثم لا يخفى عليك أنه عند الأئمة المحققين عَلَمٌ لا كالعلم ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ﴾ خلقاً وملكاً ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ﴾ ما وجد فيهما، ففيه بيان فخامة الصراط، وإظهاره لتحتم سلوكه على الناس قاطبة ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ وعيد لمن كفر بالكتاب، ولم يخرج من الظلمات إلى النور ﴿مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ معدٌّ لهم في الآخرة.

﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٣﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ يختارونها عليها فالسين للطلب، والمحبة مجاز عن الاختيار، وقد جمع الله سبحانه هذين الوصفين، ليبين بذلك أن المحبة للدنيا وحده لا يكون مذموماً، إلا بعد أن يضاف إليه إيثارها على الآخرة، فهذا المذموم ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يصرفون الناس عن دين الله تعالى، والإيمان به ﴿وَيَبْغُونَهَا﴾ أي يبغون لها فحذف الجار أي يطلبون لها ﴿عِوَجًا ۚ﴾ أي زيفاً واعوجاجاً، أي يقولون لمن يريدون صده وإضلاله عن السبيل: هي سبيل زائفة وغير مستقيمة ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ عن الحق، والبعد وإن كان من أحوال الضال، إلا أنه قد وُصف فعله مجازاً للمبالغة، كجدَّ جدُّه، ثم قوله تعالى: ﴿أولئك في ضلال﴾ دون أن يقول أولئك الضالون ضلالاً، للدلالة على تمكنهم فيه، تمكن المظروف في الظرف، وتصوير اشتمال الضلال عليه من كل جانب.

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٤﴾ ﴾.

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا ﴾ في الأمم الخالية من قبلك ﴿ مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ ﴾ أي متكلماً بلغة قومه الذي هو منهم، أو بعث فيهم ﴿ لِيُبَيِّنَ ﴾ ذلك الرسول ﴿ لَهُمۡۖ ﴾ لأولئك القوم ما أمروا به، فيتلقَّوه عنه بيسر وسرعة، ويعملوا بموجبه من غير حاجة إلى الترجمة ﴿ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ ﴾ أي يخلق فيه الضلال، ويخذله فلا يلطف به، لوجود أسبابه المؤدية إليه فيه ﴿ وَيَهۡدِي ﴾ أي يخلق الهداية، أو يمنح الألطاف ﴿ مَن يَشَآءُۚ ﴾ هدايته لما فيه من الإنابة والإقبال إلى الحق، يعني أن الرسول ليس عليه إلا التبليغ والتبيين، والله الهادي والمضل، يفعل ما يشاء والالتفات بإسناد الفعلين إلى الاسم الجليل، لتفخيم شأنهما ﴿ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ﴾ الذي لا يُغلب على مشيئته ﴿ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ الذي لا يفعل إلا لحكمة.

﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنۡ أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّٰمِ ٱللَّهِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ﴿٥﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ ﴾ تسلية وتصبير للرسول ﷺ على أذى قومه، بذكر قصص بعض الرسل ﴿ بِـَٔايَٰتِنَآ ﴾ وهي المعجزات التي أظهرها الله على يديه، وهي كما قال مجاهد وعطاء: الآياتُ التسع ﴿ أَنۡ أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ ﴾ أي بني إسرائيل، والمعنى: أرسلناه وقلنا له: أخرجْ قومك ﴿ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ ﴾ من الكفر والجهالة، التي أدتهم إلى أن يقولوا: «يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة» ﴿ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ إلى الإيمان بالله وتوحيده وسائر ما أمروا به ﴿ وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّٰمِ ٱللَّهِۚ ﴾ أي بنعمائه وبلائه، كما روي عن ابن عباس واختاره الطبري، وعن أبي بن كعب أنه فسر الأيام في الآية

بنعم الله وآلائه، والالتفات بإضافة الأيام إلى الاسم الجليل، للإيذان بفخامة شأنها، أي عظهم بالترغيب والترهيب ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ في التذكير بها ﴿لَآيَاتٍ﴾ عظيمة تدل على وحدانيته، وقدرته، وعلمه، وحكمته تعالى ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ على البلاء ﴿شَكُورٍ﴾ لنعمائه، فإنه إذا سمع بما نزل على من قبله من البلاء، وأفيض عليهم من النعماء، اعتبر وتنبّه لما يجب عليه من الصبر والشكر، وقيل المراد لكل مؤمن، وإنما عبَّر بذلك عنهم بذلك، تنبيهاً على أن الصبر والشكر عنوان المؤمن، الدال على ما في باطنه، وتخصيص الآية بالصبّار الشكور، لأنه المنتفع بها، وتقديم الصبر لما أن الصبر مفتاح الفَرَج، المقتضي للشكر.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾﴾.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ أي اذكروا نعمته وقت إنجائه آباءكم ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ المراد بالعذاب ههنا غير المراد في سورة البقرة والأعراف، لأنه مفسر بالتذبيح والقتل هناك ومعطوف عليه التذبيح ههنا، وهو استعبادهم، واستعمالهم بالأعمال الشاقة ﴿وَفِي ذَٰلِكُم﴾ من حيث إنه إقدار الله تعالى إياهم، وإمهالهم فيه ﴿بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ ابتلاء منه، ويجوز أن تكون الإشارة إلى الإنجاء، والمراد بالبلاء النعمة.

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾﴾.

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾ من جملة مقال موسى أي اذكروا نعمة الله، واذكروا إذ تأذَّن ربكم وهو نعمة من الله عليهم، لما فيه من الترغيب

والترهيب، الباعثين على خير الدنيا والآخرة ﴿تأذَّن﴾ أي آذن إيذاناً بليغاً، لا تبقى معه شبهة، لما في صيغة التفعل من معنى التكلف أي أعلم إعلاماً بليغاً ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ﴾ يا بني إسرائيل ما خوَّلتكم من نعمة الإنجاء، وإهلاك العدو، وغير ذلك من النعم وقابلتم بالإيمان والطاعة ﴿لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ نعمةً إلى نعمة ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ﴾ ذلك وعصيتموني ﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ فأعذبكم على الكفر عذاباً شديداً، ومن عادة أكرم الأكرمين، أن يصرّح بالوعد، ويُعرِّض بالوعيد، فلذا لم يقل لأعذبنكم كما قال: ﴿لأزيدنكم﴾ وعذابُ الكفر أما في الدنيا فسلب النعمة، وأما في العقبى فتوالي النقم.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾﴾.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ﴾ لعله عليه السلام قاله، عندما عاين منهم دلائل العناد، وتيقن أنه لا ينفعهم التذكير ﴿إِن تَكْفُرُوٓاْ﴾ نعمه تعالى ﴿أَنتُمْ﴾ يا بني إسرائيل ﴿وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ من الثقلين ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ﴾ عن شكركم وشكر غيركم ﴿حَمِيدٌ﴾ مستوجب للحمد بذاته لكثرة أياديه، وهو محمود تحمده الملائكة، بل كل ذرات العالم، كالتعليل لما ذُكر، أي إن تكفروا لم يرجع وباله إلا عليكم، حيث حرمتم أنفسكم مزيد الإنعام، وعرضتموها للعذاب الشديد، فاللهُ لا تنفعه طاعةٌ، ولا تضرُّه معصية.

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِيٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾﴾.

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾ شروع في

الترهيب بتذكير ما جرى على الأمم الخالية، أي ألم يسمعوا ما جرى عليهم، ليتدبروا ما أصاب كل واحد منهم، فيقلعوا عما لهم عليه من الشرك، وينيبوا إلى الله عز وجل؟ ﴿وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ﴾ أي من بعد المذكورين ﴿لَا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ أي إنهم من الكثرة بحيث لا يعلم عددهم إلا الله تعالى، وكان ابن مسعود إذا قرأ هذه الآية قال: كذب النسّابون، لأنهم يدّعون علمها، وقد نفى الله تعالى علمها عن العباد ﴿جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ بالمعجزات الواضحات، فبيَّن كلُّ رسول منهم لأمته طريق الحقّ، ليخرجهم من الظلمات إلى النور ﴿فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ مشيرين بذلك إلى ألسنتهم وما يصدر عنها[1] ﴿وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ﴾ أي على زعمكم، وهي البينات التي أظهروها حجة على صحة رسالتهم، وحاصله أنهم أشاروا إلى جوابهم هذا، كأنهم قالوا هذا جوابنا لكم، وليس عندنا غيره، إقناطاً لهم من التصديق، والأيدي والرد مجاز عن الإشارة، أو وضعوا أيديهم على أفواههم، مشيرين بذلك للرسل أن يكفُّوا ويسكتوا ﴿وَإِنَّا لَفِي شَكّٖ﴾ عظيم ﴿مِّمَّا تَدۡعُونَنَآ إِلَيۡهِ﴾ من الإيمان بالله والتوحيد ﴿مُرِيبٖ﴾ موقع في الريبة، وهو قلق النفس وعدم الاطمئنان، بادروا أولاً إلى الكفر، وهو التكذيب المحض، ثم أخبروا أنهم في شك وهو التردد في دعوة الرسل.

﴿۞ قَالَتۡ رُسُلُهُمۡ أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يَدۡعُوكُمۡ لِيَغۡفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرَكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ قَالُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتُونَا بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ١٠﴾.

(١) المراد أنهم وضعوا أيديهم على أفواههم مبالغةً في السخرية والتكذيب، وتوضيح هذا أنهم لمَّا سمعوا كلام الرسل، عجبوا من ذلك وضحكوا على سبيل السخرية، فعند ذلك وضعوا أيديهم على أفواههم، كما يفعل ذلك من غَلَبه الضحكُ، فوضع يده على فمه.

﴿ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ ﴾ منكرين عليهم ومتعجبين من مقالتهم الحمقى ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ ﴾؟ أي أنتم في شك في شأنه سبحانه، ووجوده، ووحدانيته، وهو أظهر من كل ظاهر؟ أي ليس في الله شك، وحيث كان مقصدهم الدعوة إلى الإيمان، وكان إظهار البينات وسيلةً إلى ذلك، لم يتعرضوا للجواب عن قول الكفرة ﴿إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ﴾ واقتصروا على ما هو الغاية القصوى، وهو الشكُّ في وجوده تعالى، ثم عقبوا ذلك بالشواهد الدالة على الوحدانية فقالوا: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي مبدعهما وما فيهما، على نظام أنيق شاهد على وجوده ووحدانيته، ثم نبهوا على عظم كرمه ورحمته فقالوا: ﴿يَدْعُوكُمْ﴾ إلى الإيمان ببعثه إيانا، ولا ندعوكم إليه من تلقاء أنفسنا كما يوهمه قولكم ﴿مما تدعوننا إليه﴾ ﴿لِيَغْفِرَ لَكُم ﴾ أي يدعوكم لأجل المغفرة ﴿مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ أي بعضها، وهو ما عدا المظالم، وحقوق العباد، فإن الإسلام يجبُّه دون مظالم العباد، ولم تجىء مع «مِنْ» إلا في خطاب الكافرين، وقال تعالى في خطاب المؤمنين ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ وذلك للتفريق بين الخطابين فالمؤمنون تغفر لهم جميع ذنوبهم تفضُّلاً وكرماً ﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ إلى وقت سماه الله تعالى، فلا يعاجلكم بعذاب الاستئصال ﴿قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ﴾ أي ما أنتم ﴿إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ من غير فضل يؤهلكم لما تدَّعونه من الرسالة ﴿تُرِيدُونَ ﴾ بما تتصدون له من الدعوة والإرشاد ﴿أَن تَصُدُّونَا﴾ أي أن تصرفونا بتخصيص العبادة لله تعالى ﴿عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ عما استمر عليه آباؤنا من غير شيء يوجبه ﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾ يدلُّ على فضلكم، وعلى صحة ادعائكم النبوة؟ كأنهم لم يعتبروا ما جاؤوا به من البينات، واقترحوا عليهم آية أخرى، تعنُّتاً ولَجَاجاً.

﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ ﴾.

﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ﴾ مجاراة معهم في أول مقالاتهم ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ كما تقولون ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ﴾ أي يتفضّل بالنبوة ﴿عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ يعنون أن ذلك عطية من الله تعالى، يعطيها من يشاء من عباده، بمحض الفضل، والبشرية غير مانعة لمشيئته تعالى، ولا يخفى ما في العدول عن قولهم: «ولكنَّ الله منَّ علينا» إلى ما في النظم الجليل، من التواضع منهم عليهم السلام ﴿وَمَا كَانَ لَنَا﴾ أي ما صحَّ وما استقام ﴿أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ﴾ أي بحجة من الحجج الواضحة، فضلاً عن السلطان المبين، الذي اقترحتموه ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ فإنه أمر يتعلق بمشيئة الله تعالى، إن شاء كان، وإلاَّ فلا ﴿وَعَلَى اللَّهِ﴾ وحده دون غيره ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أمر منهم للمؤمنين كافة، وقصدوا به أنفسهم، كأنهم قالوا: ومن حقنا أن نتوكل على الله، في الصبر على معاندتكم، ومما يدلُّ على أنهم قصدوا أنفسهم قولُهم:

﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾﴾.

﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ﴾؟ أيْ أيُّ عذرٍ لنا أن لا نتوكل على الله؟ ﴿وَقَدْ هَدَانَا﴾ أي والحالُ أنه قد فعل بنا ما يوجبه حيث هدانا ﴿سُبُلَنَا﴾ أي أرشد كلاً منَّا سبيله ومنهاجه، الذي شُرع له، وحيث كانت أذية الكفار مما يوجب الاضطراب، قالوا مظهرين لكمال العزيمة ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا﴾ أي ولنصبرن على أذاكم لنا بصنوف الأذى ﴿وَعَلَى اللَّهِ﴾ خاصة ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ أي فليثبت المؤمنون المتوكلون على الله، فمن توكل على الله كفاه.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾﴾.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ ﴾ أي قال الكفار للرسل الأطهار، متوعدين ومهدّدين: ﴿ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ﴾ حلفوا على أن يكون أحد الأمرين: إما إخراجهم من الأوطان، أو عودهم في ملتهم، ولم يقنعوا بعصيانهم الرسل، والعود باعتبار تغليب المؤمنين على الرسل، أي لترجعن أنتم وأتباعكم إلى ديننا، والأنبياء لم يكونوا على دينهم قط، فإنهم نشأوا على التوحيد، وفي أول الأمر ما أظهروا المخالفة، فالقوم ظنوا أنهم كانوا على دينهم، فلذا قالوا أو لتعودُنَّ ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ ﴾ إلى الرسل ﴿ رَبُّهُمْ ﴾ مالك أمرهم عند تناهي عتوِّ المشركين ﴿ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ على إضمار القول، أي قائلاً لنهلكن المشركين المتناهين في الظلم والطغيان.

﴿ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ ﴾.

﴿ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ ﴾ أي أراضيهم وديارهم ﴿ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ﴾ أي من بعد إهلاكهم، جعل الله عزَّ وجلَّ عقوبتهم لقولهم بإخراج الرسل، إخراجَهم من الدنيا، وتوريث أرضهم وديارهم للمؤمنين ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ إشارة إلى الموحى به، وهو إهلاك الظالمين، وإسكان المؤمنين ديارهم، أي ذلك أمرٌ محقَّق ثابت ﴿ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى ﴾ وهو الموقف الذي يقف فيه العباد، يوم يقوم الناس لرب العالمين ﴿ وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ أي وعيدي بالعذاب، وفي الآية دلالة على أن من توكل على ربه في دفع عدوه كفاه الله أمر عدوه.

﴿ وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ ﴾.

﴿ وَٱسْتَفْتَحُوا۟ ﴾ أي سألوا الله النصر والفتح على أعدائهم، والضمير للرسل عليهم السلام، أي استنصر الرسل وطلبوا من الله أن ينصر المحقَّ، ويهلك المضل ﴿ وَخَابَ ﴾ أي خسر وهلك ﴿ كُلُّ جَبَّارٍ ﴾ عات متكبر

عن عبادة الله سبحانه وطاعته ﴿عَنِيدٍ﴾ معاند للحق، مباهٍ بما عنده، ففي الكلام إيجاز الحذف، أي استفتحوا ففتح لهم، وظفروا بما سألوا وأفلحوا وخاب كل جبار عنيد، وهم قومهم المعاندون، وإنما ذكر كل جبار عنيد موقع ضميرهم، ذماً لهم، وتسجيلاً عليهم.

﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾﴾.

﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ﴾ من بين يديه، فإنه مرصد لها، واقف على شفيرها في الدنيا، مبعوثٌ إليها في الآخرة ﴿وَيُسْقَىٰ﴾ عطف على مقدر كأنه قيل: يلقى فيها ويسقى ﴿مِن مَّآءٍ﴾ مخصوص لا كالمياه المعهودة ﴿صَدِيدٍ﴾ هو قيح أو دم مختلط، يسيل من أجساد أهل النار، عطف بيان لما أبهم أولاً، ثم بُيِّن تهويلاً لأمره، وتخصيصُه بالذكر من عذابها يدل على أنه من أشد أنواعه، وأفظعه، وأشنعه.

﴿يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾﴾.

﴿يَتَجَرَّعُهُۥ﴾ يتكلف جرعه أي يشربه جرعة جرعة، لغلبة العطش، واستيلاء الحرارة عليه ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ ولا يقارب أن يسيغه فكيف يسيغه؟ بل يغص به فيطول عذابه، تارة بالحرارة والعطش، وتارة بشربه على تلك الحال ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ﴾ أي أسبابه من الشدائد وأنواع العذاب، ﴿مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ أي فتحيط به من جميع الجهات الستّ، أو من كل مكان من جسده، حتى من أصول شعره، وإبهام رجله، وإطلاق المكان على الأعضاء مجاز ﴿وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ أي والحال أنه ليس بميت حقيقة فيستريح ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ﴾ ومن بين يديه ﴿عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ يستقبل في كل وقت، عذاباً أشدَّ وأشقَّ مما هو عليه، ففيه دفع ما يتوهم من الخفة، بحسب الاعتياد كما في عذاب الدنيا، وقيل: هو الخلود الأبديُّ في النار.

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾﴾.

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ﴾ صفتهم وحالتهم العجيبة الشأن التي هي كالمثل في الغرابة ﴿أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ﴾ أعمالهم التي عملوها في وجوه البر، كصلة الأرحام، وعتق الرقاب، وقرى الأضياف، وغير ذلك ﴿ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ﴾ فنسفته وطيَّرته ﴿فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ أي ريحه عاصف أي شديدٌ قويٌّ، وصف به زمانه ـ اليوم ـ للمبالغة، كقولهم: نهاره صائم، وليله قائم، شبَّه به أعمالهم في حبوطها وذهابها هباءً منثوراً[1] ﴿لَّا يَقْدِرُونَ﴾ يوم القيامة ﴿مِمَّا كَسَبُوا۟﴾ من تلك الأعمال ﴿عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ﴾ لحبوطه، فلا يرون له أثراً من الثواب ﴿ذَٰلِكَ﴾ ما دل عليه التمثيل من ضلالهم مع حسبانهم أنهم على شيء ﴿هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾ عن طريق الحق، والصواب، فإنه الغاية في البعد عن طريق الهدى والرشاد.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ الخطاب للرسول ﷺ، والمراد به أمته والرؤية قلبية ﴿أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ أي ألم تعلم أنه تعالى خلق السماوات والأرض وما فيهما ﴿بِٱلْحَقِّ ۚ﴾ أي ملتبسة بالحكمة الجليلة، والوجه

(١) مثَّل تعالى لأعمال الكفار، التي عملوها في الدنيا يبتغون بها الأجر، من صدقة وصلة رحم وغيرها، بمثل رمادٍ وهو التراب الناعم، عصفت به الريح فجعلته هباءً منثوراً، فكما تمحق الريح الشديدة الرماد في يوم عاصف، كذلك تذهب أعمال الكفار ضياعاً ودماراً.

الصحيح الدال على عظمة الخالق، يعني لم يخلقهما عبثاً وإنما خلقهما لأمر عظيم وغرض صحيح ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ يعدمكم بالمرة ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ سواكم خلقاً آخر، أعبد لله منكم وأطوع، رتَّب تعالى قدرته على ذلك، على قدرته على خلق السماوات والأرض، إرشاداً إلى طريق الاستدلال، فإنَّ من قدر على خلق الأجرام العظيمة، كان على تبديل خلقٍ آخر بهم أقدر، ولذلك قال: ﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ﴾

﴿وَمَا ذَلِكَ﴾ أي إذهابكم والإتيان بخلق آخر مكانكم ﴿عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ أي بصعبٍ ولا عسير، بل هو سهل يسير، فإنه عزَّ وجل قادرٌ على جميع الممكنات.

﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾﴾.

﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ أي يبرزون من قبورهم يوم القيامة، لأمر الله تعالى ومحاسبته، وإنما ذكر بلفظ الماضي لتحقق وقوعه ﴿فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟﴾ أي الأتباع جمع ضعيف يريد به ضعاف الرأي والعقل ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟﴾ أي لرؤسائهم الذين أغووهم وأضلوهم عن دين الله ﴿إِنَّا كُنَّا﴾ في الدنيا ﴿لَكُمْ تَبَعًا﴾ في تكذيب الرسل، والإعراض عن نصائحهم ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا﴾ أريد بالاستفهام التوبيخُ والتقريعُ، والغناءُ بمعنى الفائدة، وضُمِّن معنى الدفع، ولذا عُدّي بعن أي إنَّا اتبعناكم فيما كنتم فيه من الضلال، فهل أنتم اليوم دافعون عنا ﴿مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ أي بعض الشيء الذي حلَّ بنا؟ ﴿قَالُوا۟﴾ أي المستكبرون جواباً واعتذاراً عما فعلوا بهم ﴿لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ للإيمان ﴿لَهَدَيْنَٰكُمْ﴾ ولكن ضللنا فضللناكم، أي اخترنا لكم ما اخترنا لأنفسنا ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ﴾ مما لقينا، جَزِع الرجلُ إذا ضَعُف عن حمل ما نزل به ﴿أَمْ صَبَرْنَا﴾ على ذلك، أي مستوٍ علينا الجزعُ والصبر،

ولمَّا كان عتاب الأتباع من باب الجزع ذيلوا جوابهم ببيان أن لا جدوى في ذلك، فقالوا: ﴿مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ أي من منجى ومهرب من العذاب، والمحيصُ: المنجى والمهرب.

﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي إبليس الذي أضل كلا الفريقين ﴿لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ أي أحكم وفُرغ منه، ودخل أهل الجنةِ الجنَّة، وأهلُ النار النَّار، قام خطيباً في أشقياء من الثقلين. أخرج ابن جرير عن الحسن قال: إذا كان يوم القيامة، قام إبليس خطيباً على منبر من نار فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ﴾ وعداً حقاً، وعد من أطاعه الجنة، ومن عصاه النار، فوفَّاكم وأنجزكم ذلك ﴿وَوَعَدتُّكُمْ﴾ وعد الباطل، وهو أن لا بعث ولا حساب، ﴿فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ أي كذبتكم وأخلفتكم الوعد، جعل تبين خلاف وعده، كالإخلاف منه وظهر كذبه ﴿وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ من تسلُّط فألجئكم إلى الكفر والمعاصي ﴿إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ﴾ أي إلاَّ دعائي إياكم إلى الضلالة ﴿فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى﴾ أسرعتم إجابتي باختياركم ﴿فَلَا تَلُومُونِى﴾ بوسوستي فقد حذَّركم الله مني، وأخبركم عداوتي ﴿وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم﴾ حيث استجبتم لي باختياركم، ولم تطيعوا ربكم، لمَّا دعاكم دعوة الحق المقرونة بالبينات والحجج، وليس مراد اللعين التنصل عن توجّه اللائمة إليه، بل بيان أنهم أحق بها منه، وفي هذه الآية دليل على أن الإنسان هو الذي يختار السعادة والشقاوة، وليس من الله إلا التمكين، ولا من الشيطان إلا التزيين ﴿مَّآ أَنَا۠

﴿بِمُصْرِخِكُمْ﴾ أي بمغيثكم من العذاب، يقال: استصرخني فأصرخته[1]، أي استغاثني فأغثته، وأصله من الصراخ وهو مدُّ الصوت، والهمزة للسلب، كأن المغيث يزيل صراخ المستغيث ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ﴾ بمغيثي مما أنا فيه، وإنما تعرض لذلك للتذكير بأنه أيضاً مبتلى بمثل ما ابتلوا به، ومحتاج إلى الإغاثة ﴿إِنِّي كَفَرْتُ﴾ اليوم ﴿بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾ أي كفرت بالذي أشركتمونيه، وهو الله تعالى، لطاعتكم إياي فيما دعوتكم إليه من عبادة الأصنام وغيرها ومعنى كفره بإشراكهم، تبرئه واستنكاره له كقوله تعالى: ﴿إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبدونَ مِنْ دُونِ الله﴾[2] ﴿إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ابتداء كلام من الله تعالى، وفي حكاية أمثال ذلك لطف بالسامعين، وإيقاظ لهم، حتى يحاسبوا أنفسهم ويتدبَّروا عواقبهم.

﴿وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ بإذن الله وأمره، والمدخِلون هم الملائكة، ولمَّا ذكر الله تعالى مآل الكفار، ذكر مآل أمر المؤمنين، من إدخالهم الجنة، وفي التعرض لوصف الربوبية، مع الإضافة إلى ضميرهم، مزيدُ اللطف بهم ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ أي تحيِّيهم الملائكةُ فيها بالسلام، أو الرب سبحانه يحيِّيهم بالسلام، كما قال سبحانه: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلاً مِن رَبٍّ رحَيمٍ﴾ وهو مشتق من السلامة أي أنهم سلموا من آلام الدنيا وعذاب الآخرة.

---

(١) الصارخُ والمستصرخ هو الذي يطلب النصرة والمعاونة، والمصْرِخُ هو المغيث. اهـ القرطبي ٩/ ٣٥٧.

(٢) سورة الممتحنة، آية: ٤.

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ ﴾.

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا ﴾ أي كيف بيَّنه ووضعه في موضعه اللائق به ﴿ كَلِمَةً طَيِّبَةً ﴾ هي كلمة التوحيد «لا إله إلا الله محمد رسول الله» ﴿ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ ﴾ أي حكم بأنها مثلها، لا أنه صيَّرها مثلها في الخارج كقولك شرَّف الأمير زيداً كساه حُلَّة، وكونُ الشجرة طيبة، إما كونها طيبة المنظر، أو طيبة الرائحة، أو طيبة الثمرة، أو طيبةً بحسب المنفعة، وإذا اجتمعت فيها هذه الأمور يحصل كمال الطيب ﴿ أَصْلُهَا ثَابِتٌ ﴾ في الأرض ضارب بعروقه فيها ﴿ وَفَرْعُهَا ﴾ أي أعلاها، وسمي الأعلى فرعاً لتفرعه عن الأصل، ولهذا أفرد، ويجوز أن يراد به الفروع، لأنه مضاف والإضافة تَرِدُ للاستغراق، فكأنه قيل وفروعها ﴿ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ أي في جهة العلو.

﴿ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾.

﴿ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا ﴾ تعطي ثمرها ﴿ كُلَّ حِينٍۭ ﴾ وقَّته الله تعالى لإثمارها ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ ﴾ بإرادة خالقها وتكوينه، والمراد بالشجرة المنعوتة النخلة وروي عن ابن عمر قال: كنا عند رسول الله ﷺ، فقال: «أخبروني عن شجرة شِبْهُ الرجل المسلم، لا يتحاتُّ ورقُها، تؤتي أكلها كل حين؟ قال ابن عمر: فوقع في نفسي أنها النخلة، ورأيت أبا بكر وعمر لا يتكلمان فكرهت أن أتكلم فقال ﷺ: هي النخلة، فحكيتها لأبي فقال: يا بنيَّ لو كنتَ قلتها لكانت أحبَّ إليَّ من حُمْرِ النَّعَم»[1] وقيل: كلُّ شجرة مثمرة، طيبة الثمار، كالنخلة، والتين، والعنب، والرمان، ونحو ذلك، وأنت تعلم

(١) الحديث أخرجه البخاري في كتاب التفسير ٦/٩٩ ورواه أحمد في المسند ٢/١٢ ومسلم رقم ٢٨١١ باب «مَثَلُ المؤمن كمثل النخلة».

أنه إذا صح الحديث لا ينبغي العدول عنه، ووجهُ تشبيه الكلمة الطيبة بمعنى شهادة «أن لا إله إلا الله» بهذه الشجرة المنعوتة، أن أصل تلك الكلمة، هو الإيمان الثابت في قلوب المؤمنين، وما يتفرع منها من الأعمال الصالحة يصعد إلى السماء، وما يترتب على ذلك من ثواب الله ورضاه، هو الثمرة التي تؤتيها كل حين ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ لأن في ضربها زيادة إفهام وتذكير، فإن فيه تصوير المعاني العقلية، بصور المحسوسات، وبه يرتفع التنازع بين الحسِّ والخيال.

﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ ﴾.

﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ وهي كلمة الكفر وتكذيب الحق، وما يعم كل كلمة قبيحة عند الله سبحانه ﴿كَشَجَرَةٍ﴾ كمثل شجرة ﴿خَبِيثَةٍ﴾ كالحنظل ونحوه ﴿ٱجْتُثَّتْ﴾ اقتُلعت من أصلها، وحقيقةُ الاجتثاثِ: أخذ الجثة وهي شخص الشيء كله ﴿مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ﴾ لأن عروقها قرينة منه ﴿مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ استقرار، والكلمة المشبهة هي الإشراك بالله سبحانه، فإنَّ الكفر أول الآفات، ورأس الشقاوات، فخبثُه لا يخفى، ليس له حجة ولا قوة، بل هو داحض غير ثابت.

﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾ ﴾.

﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾ الذي تنبت بالحجة عندهم، وتمكَّن في قلوبهم، وهو قول: ﴿لا إله إلا الله﴾ ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ فلا يزيغون إذا افتتنوا في دينهم، كما جرى لبلال وكثير من أصحاب رسول الله رضوان الله عليهم ﴿وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ أي بعد الموت وذلك في القبر، الذي

هو أول منزل من منازل الآخرة عند سؤال منكر ونكير، وفي مواقف القيامة فلا يتلعثمون إذا سُئلوا عن معتقدهم هناك، ولا تُدهشهم الأهوال، عن أبي سعيد الخدري قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول في هذه الآية: «﴿يُثَبِّتُ اللهُ﴾ وفي الآخرة: القبرُ»[1] ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الذين ظلموا أنفسهم فلا يهتدون إلى الحق، فلا يثبتون في مواقع الفتن، والمراد بهم الكفرة، ووصفهم بالظلم باعتبار ظلمهم لأنفسهم، باختيار الضلال، فالمراد بالذين آمنوا المخلصون في الإيمان، والراسخون في الإيقان، كما ينبىء عنه التثبيت ﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ من تثبيت بعض، وإضلال آخرين، من غير اعتراضٍ عليه، حسبما توجبه مشيئته، التابعةُ للحِكم البالغة، وفي إظهار الاسم الجليل في الموضعين، من الفخامة، وتربية المهابة ما لا يخفى.

﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿۞ أَلَمْ تَرَ﴾ تعجيب لرسول الله ﷺ أو لكل أحد مما صنع الكفرة أي ألم تنظر ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ أي شكر نعمته تعالى، بأن وضعوا موضعها ﴿كُفْرًا﴾ عظيماً، أو بدلوا نفس النعمة كفراً، فإنهم لما كفروها سُلبت منهم، كأهل مكة، خلقهم الله تعالى، وأسكنهم حرمه، وجعلهم قُوَّام بيته العتيق، ووسَّع عليهم أبواب رزقه، وشرفهم برسول الله ﷺ، فكفروا بذلك، فقُحطوا سبع سنين، وقُتلوا وأُسروا، فصاروا أذلاء مسلوبي النعمة بعد الرفاهية والعزة، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ألم تر إلى

(١) الحديث أخرجه ابن مردويه من رواية أبي سعيد الخدري، وروى البخاري عن البراء ابن عازب أن رسول الله ﷺ قال: «المسلم إذا سُئل في القبر، شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فذلك قوله تعالى: ﴿يثبت الله الذين آمنوا..﴾ وفي الآخرة» وانظر فتح الباري على البخاري ٨/ ٣٧٨.

الذين﴾ قال: هم كفار مكة ﴿وَأَحَلُّواْ﴾ أي أنزلوا ﴿قَوْمَهُمْ﴾ الذين تابعوهم على الكفر ﴿دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾ دار الهلاك الذي لا هلاك وراءه، يُقال: بَارَ الشيء يبور بَوْراً هلك، وأصله فرط الكساد المؤدِّي إلى الفساد، كما قيل: كَسَد حتى فسد، عبَّر به عن الهلاك.

﴿ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ ﴾.

﴿جَهَنَّمَ﴾ عطف بيانٍ لها، وفي الإبهام، ثم البيان ما لا يخفى من التهويل ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ يقاسون حرها ﴿وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾ بئس المقر جهنم مسكناً ومستقراً لهم.

﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾ ﴾.

﴿وَجَعَلُواْ﴾ أي جعلوا في اعتقادهم ﴿لِلَّهِ﴾ الفرد الذي ليس كمثله شيءٌ ﴿أَندَادًا﴾ أشباهاً وأمثالاً في العبادة والتسمية ﴿لِّيُضِلُّواْ﴾ قومهم الذين يشايعونهم ﴿عَن سَبِيلِهِۦ﴾ الذي هو التوحيد، ليوقعوهم في ورطة الكفر والضلال ﴿قُلْ﴾ يا رسول الله تهديداً لأولئك المضلين الضالين ﴿تَمَتَّعُواْ﴾ بما أنتم عليه من الشهوات، التي من جملتها كفران النعم، واستتباع الناس في الضلال، وجَعَل ذلك متمتَّعاً به تشبيهاً له بالمشتهيات المعروفة، لتلذذهم به كتلذذهم بها ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ الأمرُ أمرُ تهديدٍ، وهذا كقول الطبيب لمريضٍ يأمره بالاحتماء فلا يحتمي، كلْ ما تريد، فإن مصيرك إلى الموت، فإن المقصود منه التهديد، ليرتدع ويقبل ما يقول.

ثم إنه تعالى أمر نبيه ﷺ أن يأمر عباده الصالحين، بالعبادة البدنية، والمالية وبطاعة الله ورسوله فقال تقدست أسماؤه:

﴿ قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾ ﴾ .

﴿ قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ خصهم بالإضافة تنويهاً بهم، وتشريفاً لهم ﴿ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ ﴾ ومقولُ القول محذوفٌ، دلَّ عليه ﴿يُقِيمُوا﴾ أي قل لهم أقيموا الصلاة، وأنفقوا، يقيمون وينفقون ويفعلون بالأمر، لصدق إيمانهم، فهم متى أُمروا امتثلوا، ﴿ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾ أي خفية وجهراً، والأحب في الإنفاق إخفاء التطوع، وإعلان الواجب، والمراد من الأمر حث المؤمن على الشكر لنعم الله عزَّ وجل، بالعبادة البدنية والمالية، وترك الركون إلى متاع الدنيا، كما هو صنيع الكفرة ﴿ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ ﴾ فيبتاع المقصِّر ما يتدارك به تقصيره أو يفتدي به نفسه، ﴿ وَلَا خِلَٰلٌ ﴾ ولا مخالة أي صداقة فيشفع لك خليل.

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ ﴾ .

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ﴾ أي أخرج به أنواع الحبوب والثمار، تعيشون به، وهو يشمل المطعوم، والملبوس ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ ﴾ بأن أقدركم على صنعتها واستعمالها، بما ألهمكم كيفية ذلك ﴿ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ ﴾ جرياً تابعاً لإرادتكم حيث توجهتم ﴿ بِأَمْرِهِۦ ﴾ بمشيئته تعالى، ويندرج في تسخير الفلك تسخير البحر والرياح ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴾ فجعلها معدة لانتفاعكم وتصرفكم حيث تشربون منها وتسقون بها زروعكم.

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ ﴾.

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ ﴾ أي دائمين في الحركة إلى انقضاء عمر الدنيا، وأصل الدأب العادة المستمرة، وتسخير هذين الكوكبين جعلُهما منيرين، مصلحين ما نيط بهما صلاحه، ولولا ذلك ما كان كون ولا حياة، ولا ليل ولا نهار، ولا مأكولات ولا حيوانات ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾ يتعاقبان لسُباتكم ومعاشكم وفي إبراز كل من هذه النعم، في جملة مستقلة، تنويه لشأنها، وتنبيه على رفعة مكانها وتنصيص على كون كل نعمة جليلة مستوجبة للشكر.

﴿ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ ﴾.

﴿ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ ﴾ أي أعطاكم من كل شيء سألتموه شيئاً، فإن الموجود من كل صنف، بعض ما في قدرة الله تعالى، ولعل المراد بما سألتموه، ما كان حقيقاً بأن يُسأل لاحتياج الناس إليه. أي أعطاكم من كل ما تحتاجونه، سئل أو لم يُسأل، حسبما تقتضيه مشيئته التابعة للحكمة والمصلحة ﴿ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ﴾ أي ما أنعم به عليكم والمراد به الجمع، كأنه قيل: وإن تعدُّوا نِعَم الله ﴿ لَا تُحْصُوهَآ ۗ ﴾ لا تحصروها ولا تطيقوا عدَّ أنواعها، فضلاً عن أفرادها، فإنها غير متناهية، وإن رمت العثور على حقيقة الحقِّ، فاعلم أن الإنسان لو انقطع ما بينه وبين العناية الإلٰهية، لما استقرَّ له القرار، وما من فرد من أفراد الناس ـ وإن كان في أقصى مراتب الفقر ـ فهو بحيث لو تأملته لوجدته في نِعَمٍ لا تحدُّ، فإن كنت في ريب من ذلك، فتصوَّرْ مَلِكاً مَلَك أقطار العالم، وحاز جميع ما في الدنيا من الأموال، ثم قُدِّر أنه قد حُبس عليه النَّفَسُ، أو

حُبِس عليه البولُ، وأتاه الموت من كل مكان، أمَا يعطي ذلك بمقابلة نَفَسٍ واحد أموال الدنيا بجملتها؟ وهذا من الظهور ما لا يخفى على أحد، فاتضح أنه سبحانه يفيض علينا كلَّ آنٍ نِعَماً لا تتناهى، سبحانك ما أعظم شأنك!! سبحانك ما أعظم سلطانك!! ونحن في معرفتك حائرون، وفي إقامة شكرك قاصرون، نسألك الهداية إلى مناهج معرفتك، والتوفيق لأداء حقوق نعمتك، لا نحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ يظلم نفسه بأن يُعرضها للحرمان، بسبب الكفران، وقيل: ظلومٌ في الشدة، يشكو ويجزع، كفَّارٌ في النعمة، يجمع ويمنع، ويضع نعم الله في غير موضعها و(أل) في الإنسان للجنس، ويدخل في ذلك الذين بدلوا نعمة الله كفراً.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ﴾ أي اذكر وقت قول إبراهيم تأكيداً لما سلف من تعجيبه ﷺ ببيان فن آخر من جناياتهم، حيث كفروا بالنعم الخاصة بهم، بعدما كفروا بالنعم العامة، وعصوا أباهم إبراهيم حيث أسكنهم بمكة شرفها الله تعالى، وسأله أن يجعلها بلداً آمناً، ويرزقهم من الثمرات، وتهوي قلوبُ الناس إليهم، فاستجاب الله دعاءه، وجعله حَرَماً آمناً، يُجبَىٰ إليه ثمراتُ كلِّ شيء، فكفروا بتلك النعم العظام، واستبدلوا بالبلد الحرام دار البوار ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ﴾ أي مكة ﴿ءَامِنًا﴾ ذا أمن لمن فيها أيْ اجعله من البلاد الآمنة ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ﴾ بعِّدْني وإيَّاهم، وأصلُ التجنب جعلُ الشيء على جانب وفيه معنى الإبعاد، وهذا الدعاء مختصٌ بالمؤمنين، لقوله: ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ والمرادُ هنا طلب الثبات والدوام على التوحيد والإسلام، أي وثبتنا على ما كنا عليه من التوحيد والإيمان ﴿أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ أي اجعلنا من الذين اجتنبوا عبادة الأصنام

فإن قيل: إن الأنبياء عليهم السلام معصومون، فما الفائدة في الطلب؟ أجيب إنما ذَكَر هذا هضماً لنفسه، وإظهاراً للحاجة إلى فضل الله سبحانه في كل المطالب.

﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ ﴾.

﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ ﴾ فلذلك سألت منك العصمة، واستعذت بك من إضلالهن، وإسناد الإضلال إلى الأصنام باعتبار السببية، لأنهن جمادات لا تعقل، وإنما نسب إليهن الإضلال، لأن الناس ضلوا بسببهن، فكأنهن أضللنهم، كما تقول: فتنتهم الدنيا وغرتهم أي افتتنوا واغتروا بسببها، وهذا تعليل لدعائه، وصُدِّرَ بالنداء، إظهاراً للاعتناء به، ورغبةً في استجابته ﴿ فَمَن تَبِعَنِى ﴾ من الناس فيما أدعو إليه، من التوحيد والإسلام ﴿ فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ ﴾ أي هو من أهل ديني ﴿ وَمَنْ عَصَانِى ﴾ أي لم يتبعني، وعصى أمري في غير الشرك ﴿ فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ تقدر أن تغفر له وترحمه، فإنك يا رب غفار الذنوب، رحيم بالعباد.

﴿ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾.

﴿ رَّبَّنَآ ﴾ كرر النداء رغبة في الإجابة، والالتجاء إليه تعالى ﴿ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى ﴾ أي أسكنت ذريةً من ذريتي، والمراد به إسماعيل عليه السلام وبنيه، وهذا الإسكان بعدما كان بينه وبين أهله ما كان، وذلك أن هاجر أم إسماعيل، كانت أَمَةً لسارة فوهبتها لإبراهيم عليه السلام، فلما ولدت إسماعيل غارت منها فأخرجها وابنها إلى أرض مكة، فوضعها عند

البيت، وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء، ووضع عندهما جِرَاباً فيه تمرٌ، وسقاءً فيه ماء، ثم قفى راجعاً فتبعته هاجر، فقالت: يا إبراهيم أين تذهب؟ فجعل لا يلتفت إليها، فقالت له: آللهُ أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذاً لا يُضيّعنا، ثم رجعتْ وانطلق عليه السلام حتى إذا كان عند الثنيَّة، استقبل بوجهه البيت، ثم دعا بهذه الدعوات المباركات ﴿بِوَادٍ﴾ هو وادي مكة ﴿غَيْرِ ذِى زَرْعٍ﴾ فإنها حجريَّةٌ لا تنبت، ووصفُه في ذلك دون «غير مزروع» للمبالغة، لأن المعنى غير صالح للزرع ﴿عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾ الإضافة للتشريف، وسمي محرّماً لأنه عظيم الحرمة، حرَّم الله التعرض له بسوء، فلم يزل مهاباً، تهابه الجبابرة في كل عصر، وسمَّاه بيتاً باعتبار ما سيكون بعد ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ اللام لام كي، أي ما أسكنتهم بهذا الوادي البلقع، إلا ليقيموا الصلاة عند بيتك المحرم، ويعمروه بذكرك وعبادتك، والطواف به، والركوع والسجود حوله. وهذا الحصر مستفاد من السياق، فإنه لما قال: ﴿بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ نفى أن يكون إسكانهم للزراعة ولما قال: ﴿عِنْدَ بَيْتِكَ المُحَرَّمِ﴾ أثبتَ أنه مكان عبادة، ونفى أن يكون إسكانهم للتجارة والكسب، مع ما في ﴿رَبَّنَا﴾ من الإشارة أن ذلك هو المقصود ﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي أفئدة بعض الناس، و«مِنْ» للتبعيض، ولذلك قيل: لو قال أفئدة الناس لازدحمت عليهم جميع الناس، وأهل فارس والروم ﴿تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ أي تسرع إليهم شوقاً ووداداً وتُقبل نحوهم من البلاد الشاسعة، وأول آثار هذه الدعوة، ما روي أنه مرت رفقة من جُرْهم تريد الشام، فرأوا الطير تحوم على الجبل، فقالوا: إن هذا الطائر يحوم على الماء، فأشرفوا فإذا هم بهاجر، فقالوا لها: إن شئتِ كنا معكِ وآنسناك، وتشركينا في مائك، ونشركك في ألباننا، فأذنت لهم، وكانوا معها إلى أن شبَّ إسماعيل فتزوج منهم، كما هو المشهور ﴿وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ أي ارزق ذريتي الذين أسكنتهم هناك، يعني وارزقهم كما رزقت سكان القرى، أصحاب الماء والزروع، وإنه ليجتمع فيه الفواكه الربيعية، والصيفية، والخريفية في يوم واحد ﴿لَعَلَّهُمْ

﴿يَشْكُرُونَ﴾ تلك النعمة، فأجاب الله تعالى دعوته، فجعله آمناً يُجبى إليه ثمرات كل شيء، ولا يخفى ما في دعائه عليه السلام من مراعاة حسن الأدب، والمحافظة على قوانين الضراعة، وعرض الحاجة، واستنزال الرحمة، ولذا منَّ الله عليه بحسن القبول، واستدل به على أن تحصيل منافع الدنيا إنما هي للاستعانة بها على أداء العبادات.

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ ۗ﴾ أي تعلم سرنا كما تعلم علننا، والمعنى: إنك أعلم بأحوالنا ومصالحنا، وأرحم بنا منا بأنفسنا، فلا حاجة لنا إلى الطلب، لكنا ندعوك إظهاراً لعبوديتك، وافتقاراً إلى رحمتك، واستعجالاً لنيل ما عندك، وتكرار النداء للمبالغة في التضرع، وضمير الجماعة ليس مجرد علمه تعالى بما يخفى وما يعلن، بل بجميع خفايا المُلْكِ والمَلكُوت، وقد حقَّقه بقوله: ﴿وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ أي لا يغيب عليه تعالى شيء في الكائنات، لما أنه عزَّ وجل عالم بالذات، فما من أمرٍ كائناً ما كان إلا وجوده في ذاته علم بالنسبة إليه سبحانه ﴿أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ﴾؟.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلْكِبَرِ﴾ أي مع كبر سني، ويأسي عن الولد، فعلى بمعنى «مع» والتقييد بذلك استعظاماً للنعمة، واستظهاراً لشكرها ﴿إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ﴾ روي أنه ولد له إسماعيل لتسع وتسعين سنة، وإسحق لمائة واثنتي عشرة سنة، وهذه الرواية عن ابن عباس ﴿إِنَّ رَبِّي﴾ أي خالقي ومالك أمري ﴿لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ أي مجيب الدعاء، من قولك:

سمع الملكُ كلام فلان، إذا تلقاه بالقبول، وفيه إشعار بأنه عليه السلام دعا ربه، وسأل منه الولد، فأجابه ووهب له سؤله، حينما وقع اليأس منه، ليكون من أجلِّ النعم، وأحلاها.

﴿ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ ﴾.

﴿ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ ﴾ أي محافظاً عليها، مقيماً لها على الوجه الذي يرضيك، وتوحيد الضمير للإشعار بأنه المقتدى به في ذلك ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِى ﴾ أي واجعل من ذريتي من يقيم الصلاة أيضاً ولا يُفرّط فيها ﴿ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴾ أي استجب دعائي، وتقبل عبادتي.

﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾ ﴾.

﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى ﴾ ما فرط مني من ترك الأولى في باب الدين، مما لا يسلم البشر منه ﴿ وَلِوَٰلِدَىَّ ﴾ أي لأمي وأبي، وكانت أمه ـ على ما رُوي عن الحسن ـ مؤمنة، وأمَّا استغفاره لأبيه، فقد قيل: إنه كان قبل أنْ يتبيَّنَ له أنه عدوٌّ لله سبحانه، وقالت الشيعة: إن والديه كانا مؤمنين، ولذا دعا لهما، وأما الكافر فالمراد به عمه، وهو قول من لم يدرك النصوص القرآنية، ولم يعرف السنة النبوية ﴿ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ من ذرية إبراهيم وغيرهم، وهذا من باب ذكر العام بعد الخاص ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴾ أي يثبت ويتحقق، ويقوم الناس لرب العالمين للحساب والجزاء، وفي هذا الدعاء بشارة للمؤمنين، لأنه سبحانه لا يردُّ دعاءَ خليله.

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ ﴾.

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ ﴾ خطابٌ لرسول الله ﷺ، أي لا تظنن يا محمد أن الله ساهٍ وغافل عن أفعال الظلمة، وفيه

تسلية للمظلوم، وتهديد للظالم، والمراد بالظالمين كفار مكة، ممن عُدَّت مساوئهم، أو جنس الظالمين، وهم داخلون في الحكم، ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ﴾ أي يؤخر عقوبتهم، وإنما أسند التأخير إليهم لتهويل الخطب، ببيان أنهم متوجهون إلى العذاب وتأخيره للتشديد والتغليظ ﴿لِيَوْمٍ﴾ هائلٍ عصيبٍ رهيب ﴿تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ أي تشخص فيه أبصارهم، فلا تقرُّ في أماكنها، من هول ما ترى، يقال: شَخَص الرجلُ بصَرَه إذا فتح عينه لا يطرف، وهذا إنما يكون من شدة الهول والفزع.

﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿مُهْطِعِينَ﴾ أي مسرعين إلى الداعي، بالخوف والذل، وأصل الهَطْع: هو الإقبال على الشيء، هَطَع الرجل من باب فَتَح، إذا أقبل ببصره على الشيء لا يقلع عنه ﴿مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾ أي رافعي رؤوسهم مع إدامة النظر، من غير التفات إلى شيء[1] ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ أي لا يرجع إليهم نظرهم، بل تبقى أعينهم مفتوحة لا تطرف ﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ أي خالية من العقل والفهم، لفرط الحيرة والدهشة، ومنه قيل للجبان والأحمق: قلبُه هواءٌ أي لا قوة ولا رأي فيه، وهذا يكون وقت الحساب، وقيل: عند إجابة الداعي والقيام من القبور.

﴿وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾﴾.

---

(١) هذا هو المشهور عند أهل اللغة لمعنى الإقناع، وهو أن يرفع رأسه مديماً للنظر، وقال المبرّد: «يقال: أقنع الرجل إذا رفع رأسه، وأقنع إذا طأطأ رأسه ذلاً وخضوعاً، فهو من الأضداد، قال: ويجوز أن يرفع رأسه مديماً للنظر، ثم يطأطئه خضوعاً وذلاً». اهـ وانظر معاني القرآن للنحاس بتحقيقنا ٣/ ٥٣٩.

﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ خطاب لسيد الرسل ﷺ والمراد بالناس: الكفارُ المعبَّر عنهم بالظالمين، والعدول من الإضمار، للإشعار بأن المراد هو الزجر، عما هم عليه من الظلم، شفقةً عليهم، أي خوّفهم ذلك اليوم الرهيب، وقيل: الناسُ جميعاً، فإن الإنذار عام كقوله تعالى: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرَاً﴾ ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ﴾ أي يوم القيامة وما يكون فيه من الأهوال والشدائد ﴿فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ بالشرك والتكذيب أي فيقولون، والعدول عنه للتسجيل عليهم بالظلم، وللإشعار بأن ما لقوه إنما هو لظلمهم ﴿رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ أي أخر العذاب عنا، وردَّنا إلى الدنيا، وأمهلنا إلى زمن قريب لنستدرك ما فات ﴿نُّجِبْ دَعْوَتَكَ﴾ أي نجب الدعوة إليك، وإلى توحيدك ﴿وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ﴾ أي فيما جاؤوا به أي نتدارك ما فرطنا به من إجابة الدعوة ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ﴾ على إضمار القول أي فيقال لهم توبيخاً: ألم تؤخروا في الدنيا؟ وألم تكونوا أقسمتم بألسنتكم وحلفتم بطراً وجهلاً ﴿مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ مما أنتم عليه، من التمتع بالحظوظ الدنيوية، وأنكم لا تنتقلون من دار الفناء إلى دار البقاء، والغرض أنهم ينكرون البعث بعد الموت، ويقسمون على أن لا حساب ولا جزاء. ذكر البيهقي عن محمد بن كعب القرظي أنه قال: «لأهل النار خمسُ دعوات، يجيبهم الله تعالى في أربع منها، فإذا كانت الخامسة لم يتكلموا بعدها أبداً: الأولى يقولون: ﴿فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ﴾؟ فيجيبهم الله تعالى: ﴿ذلكم بأنه إذا دُعِيَ الله وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ﴾ ثم يقولون: ﴿فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحَاً إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ فيجيبهم جلَّ شأنه: ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ ثم يقولون: ﴿رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ﴾ فيجيبهم: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ﴾ الآية ثم يقولون: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحَاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ فيجيبهم: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ ما يتذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ﴾؟ فيقولون: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ فيجيبهم الله عزَّ وجل: ﴿اخْسَؤُوا فِيهَا وَلاَ تُكَلِّمُونِ﴾ فلا يتكلمون بعدها». اللهمَّ إنا نعوذ بك من غضبك، ونلوذ بكنفك من عذابك، ونسألك التوفيق للعمل

الصالح، في يومنا لغدنا، والتقرب إليك بما يرضيك، قبل أن يخرج الأمر من يدنا، عزَّ جارك، وجلَّ ثناؤك، ولا إله غيرك.

﴿ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ ﴾.

﴿ وَسَكَنتُمْ ﴾ من السكنى بمعنى التَّبوُّء والاستيطان، أي سكنتم في ديار الظالمين بعد أن أهلكناكم، فهلاَّ اعتبرتم بما جرى عليهم!! ﴿ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ﴾ بالكفر والمعاصي، كعاد وثمود سائرين سيرتهم في الظلم والفساد ﴿ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ ﴾ بمشاهدة الآثار وتواتر الأخبار ﴿ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ ﴾ من الإهلاك والعقوبة بما فعلوا من الظلم والفساد ﴿ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ بينا لكم في القرآن العظيم وعلى ألسنة الأنبياء ما حلَّ بهم، فلم تعتبروا منهم، فأنتم مثلهم في الكفر واستحقاق العذاب.

﴿ وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ ﴾.

﴿ وَقَدْ مَكَرُواْ ﴾ أي فعلنا بهم ما فعلنا، والحال أنهم قد مكروا في إبطال الحق، وتقرير الباطل ﴿ مَكْرَهُمْ ﴾ العظيم وجاوزوا فيه كل حدّ محدود، والمراد بيان تناهيهم في استحقاق ما فُعل بهم ﴿ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ ﴾ أي جزاء مكرهم الذي فعلوه، وتسميته مكراً لكونه بمقابلة مكرهم ﴿ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ ﴾ في العظم والشدة ﴿ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴾ وعبَّر عن ذلك بكونه معداً لإزالة الجبال عن مقارها، لكونه مثلاً في ذلك، لشدة المكر، وضخامة السعي في الإجرام، فكأنهم بمكرهم الخبيث يكادون يقتلعون الجبال.

﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ ﴾.

﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۚ ﴾ تثبيت له ﷺ على ما هو عليه، من الثقة بالله سبحانه، والتيقن بإنجاز وعده تعالى، بتعذيب الظالمين، كما يفصح عنه الفاء، لا وعده بقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ﴾ أي غالبٌ لا يُماكر، وقادر لا يُدافع ﴿ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾ لأوليائه من أعدائه.

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ ﴾.

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ ﴾ أي ينجزه ﴿يَومَ تُبَدَّلُ الأَرضُ﴾ ﴿ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾عطف على الأرض، وتقديره والسمواتُ غير السماوات والتبديل قد يكون في الذات، وقد يكون في الصفات، والآية الكريمة ليست بنص في أحد الوجهين، روى البخاري عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «يُحشر الناسُ يوم القيامة على أرض بيضاء عفراءَ ـ يعني شديدة البياض ـ كقرصة النقي ـ أي الخبز النقي في اللون ـ ليس فيها عَلَم لأحد»[1] أي علامة من الأبنية والزراعة والمساكن ﴿ وَبَرَزُوا۟ ﴾ أي الخلائق من أجداثهم ﴿ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ لمحاسبته ومجازاته، وذكرُه بالوصفين، للدلالة على أن الأمر في غاية الصعوبة، فإن الأمر إذا كان لواحدٍ غلَّاب لا يُغالب، فلا مستغاث لأحد إلى غيره ولا مستجار.

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في الرقاق ١١/٣٢٣ ومسلم رقم ٢٧٩٠ في البعث والنشور.

﴿ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ ﴾ .

﴿ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ ﴾ أي قُرن بعضهم مع بعض مع الشياطين، كقوله تعالى: ﴿فَوَ رَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ﴾ أيديهم وأرجلهم تُربط إلى رقابهم بالأغلال، كحال الأشقياء في الدنيا يربطون بالسلاسل والقيود ﴿ فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾ أي في القيود، جمع صَفد، والصَّفدُ: القيدُ، وقيل الغُلُّ، وأصله الشدُّ.

﴿ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ ﴾ .

﴿ سَرَابِيلُهُم﴾ قمصانهم جمع سربال ﴿مِّن قَطِرَانٍ﴾ وهو أسود منتن تشتعل فيه النار بسرعة، وهو إن سال بنفسه يُقال: زفتٌ وإن كان بالصناعة فقطران، ففي سرابيلهم تشبيه بليغ، وذلك أن المقصود أنه تُطلى جُلودُ أهل النار بالقطران، حتى يعود طلاؤه كالسرابيل، وذلك ليجتمع عليهم ألوان العذاب: لذعُه، وحَرْقُه، ونتنه، واللونُ الموحش على أن التفاوت بين القَطْرانين كالتفاوت بين النَارَيْن، وكلُّ ما وعد الله أو أوعد به في الآخرة فبينه وبين ما نشاهد من جنسه ما لا يقادر قدره ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ أي تعلوها وتحيط بها نار جهنم، لأنهم لم يتوجهوا بها إلى الحق، ولم يستعملوا في تدبره مشاعرهم وحواسهم، التي خلقت لأجله، ونظيره قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُون في النَّارِ عَلى وُجُوهِهِم ذُوقُوا مسَّ سَقَر﴾.

﴿ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ ﴾ .

﴿ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ﴾ أي يفعل بهم ذلك ليجزي الله ﴿ كُلَّ نَفْسٍ﴾ مجرمة بقرينة المقام ﴿ مَّا كَسَبَتْ ۚ﴾ من أنواع الكفر والمعاصي، جزاءً وفاقاً ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ إذ لا يشغله شأنٌ عن شأن، فيتمه في أعجل ما يكون من الزمان، وعن ابن عباس المراد سريع الانتقام.

﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٥٢ ﴾ .

﴿ هَٰذَا ﴾ إشارة إلى القرآن وما فيه من العظة ﴿ بَلَٰغٌ ﴾ كفاية في التذكير والموعظة ﴿ لِّلنَّاسِ ﴾ أي لجميع الخلق من إنس وجن ﴿ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ ﴾ بهذا البلاغ ﴿ وَلِيَعۡلَمُوٓاْ ﴾ بالتأمل فيه من الدلائل الواضحة، التي هي إهلاكُ الأمم، وإسكان الآخرين مساكنهم ﴿ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ ﴾ لا شريك له، ولا مثيل، ولا نظير ﴿ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ أي أصحاب العقول السليمة، فيرتدعوا عمّا يُرديهم من الصفات التي يتصف بها الكفار، وفي تخصيص التذكر بأولي الألباب، إعلاءً لشأنهم، لأنهم المنتفعون بالمواعظ والأحكام، جعلنا الله منهم بمنِّه وكرمه، إنه سميع مجيب الدعاء.

«انتهى بعونه تعالى تفسير سورة إبراهيم»

* * *